

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ : أحبطها وأبطلها فلا نفع لها .

كَفَرَ عَنْهُمْ : أزال ومحا عنهم .

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ : حالهم وشأنهم في الدين والدنيا .

أضل - أي أبطل وأحبط - أعمال الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله؛ لأنهم إذ لم يقيموا الدليل على تدينهم على المستوى الشعوري؛ فقد اعتبرت كل حسناتهم وصالح أعمالهم التي كانوا يبارسونها باطلة لا قيمة لها .

لقد كان قدماء العرب يعدون أنفسهم من أمة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - حيث كانوا يتمتعون بشرف إدارة شئون الكعبة - بيت الله الحرام - كما كانت تُقام عندهم أيضاً عبادات الصلاة والصيام والحج بشكلٍ ما، هذا إلى جانب تمسكهم ببعض عادات النبل والكرم والمروءة كخدمة الحجاج، والإحسان إلى ذوي القربى، ونجدة المظلوم وقرى الضيف وما إلى ذلك ، غير أن هذه الأعمال كلها لم تكن جزءاً أصيلاً من تدينهم الشعوري، وإنما كانت جزءاً من حياتهم على وجه التقليد المحض، فلم يكونوا

يارسونها إلا لكونها مازالت رائجةً بينهم منذ مئات السنين .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَتُمْوَهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَتَّ بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۝ ﴾

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : فاضربوا الرقاب ضرباً .

أَخْنَتُمْوَهُمْ : أوسعتموهم قتلاً وجراحاً وأسراً .

فَشُدُّوا الْوَتَاقَ : فأحكموا قيد الأسارى منهم .

مَتَّ : بإطلاق الأسرى بغير عوض .

فِدَاءً : بالمال أو بأسارى المسلمين .

حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا : آلائها وأثقالها ، والمراد حتى تنقضي الحرب .

لِّيَبْلُوَ : ليختبر ، فيمحص المؤمنين ويمحق الكافرين .

فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يبطلها بل يوفيهم ثوابها .

المراد بالكافرين هنا: الذين رفضوا الإيمان رغم قيام الحجة عليهم، وأشعلوا ضد رسول الله - ﷺ - نيران الحرب بغير الحق، وهكذا اضطروه - عليه الصلاة والسلام - إلى اتخاذ خطوة دفاعية ، وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الكافرين المعتدين أمر الله سبحانه المؤمنين بأنكم إذا ما التقيتهم به في ميدان الحرب، فاستميتوا في قتالهم حتى تحطموا قوتهم وتكسروا شوكتهم، لكي لا يعودوا قادرين مستقبلاً على الوقوف في وجه دعوة الحق!!

وقد جرت سنة الله تعالى بإهلاك الأمم والشعوب التي أنكرت أنبياءها بعد قيام الحجة، وأما بالنسبة إلى نبي آخر الزمان، فقد كان مطلوب الله هو أن يتم القضاء بواسطته هو وأصحابه على عصر الشرك، وبناء تاريخ جديد على أساس من التوحيد، وانتخاب الأفراد صانعي التاريخ كهؤلاء لم يكن ممكناً إلا في ظل ظروف صعبة وشديدة، ومن ثم فقد تم الوصول إلى هذا الغرض نفسه بدفع الرسول وصحابته إلى الخوض في غمار الحرب التي أوقدها أعداء الإسلام.

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا هُمْ﴾ ١٠١ ﴿بمعنى : هداهم إليها، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ١٠٢ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ١٠٣ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ ١٠٤ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ١٠٥ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ١٠٦ ﴿

فَتَعَسَا لَهُمْ : فهلاكوا ، أو عثارا أو شقاء لهم .

فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ : فأبطلها لكرهتهم القرآن .

دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : أطبق الهلاك عليهم .

مَوْلَى : ولي وناصر .

إن الله هو مُظهر الأحداث والوقائع كلها ، إلا أنه يُظهر الوقائع في ستار الأسباب والعلل ، وهذا هو الشأن فيما يتعلق بالدين كذلك ، فالله - سبحانه وتعالى - وإن كان

يريد أن تتحطم قوة الباطل وتندحر، ويتمتع الحق بالغلبة والاستقرار في الأرض، غير أن إظهار هذه الواقعة يتطلب أفراداً يكونون بمثابة ستارٍ بشري لتصرف اليد الإلهية وراءها، وذلك ما عبّر عنه في هذا المقام بـ "نصرة الله" وحينها تهب طائفة لنصرة الله، فإنها تعمل على إثبات كون المنكرين منكرين، حيث إن القائمين بنصرة الله من شأنهم أن يدعوا الناس إلى الله بمنتهى الجدية والنصح والإخلاص، ويتجنبوا كل سلوكٍ ينافي الحق، وهم يشهدون لدين الله، ويجعلوا أمر الحق بالتالي واضحاً ثابتاً إلى أقصى الحدود، حتى تقوم على المنكرين تلك الحجة التي يريد بها الله تعالى للقضاء بين العباد في محكمة الآخرة !

إن المبطلين مقضي عليهم أن يُغلبوا على أمرهم حتماً، وإن أتباع الحق مكتوب لهم أن ينتصروا ويتغلبوا عليهم حتماً كذلك، ولكن بشرط أن يقوم أتباع الحق بذلك العمل الذي لا بد من القيام به لاستحقاق نصر الله وحمايته وفق السنة الإلهية !

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۖ﴾ (١٠) وَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾ (١١)

مَثْوًى : موضع ثواء وإقامة لهم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ : كثير من القرى .

هذا وعيد تنبأ به رسول الله - ﷺ - بأمرٍ من الله، مخاطباً كفار مكة الذين اضطروه إلى الخروج منها، بأن أكلكم وشربكم وتقلبكم في أعطاف العيش الناعم، لا يجعلكم تظنون أنفسكم أحراراً، وإنما أنتم في قبضة الله محاصرون بقدرته التي لا تحد، ودليل ذلك أنكم إن ظللتُم مصرين على كفركم وعنادكم، فسوف يحل بكم الهلاك والدمار

المستأصل وفق الناموس الإلهي، وقد تحقق هذا الواقع على حسب النبوءة تماماً، حيث تمكن حملة لواء التوحيد من إحراز الغلبة والانتصار في نهاية المطاف!

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُل الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۖ ﴾

مَثَلُ الْجَنَّةِ : وصفها - ما تسمعون .

غَيْرِ آسِنٍ : غير متغير ولا متن .

عَسَلٍ مُّصَفًّى : منقى من جميع الشوائب .

القيام على بينة - أي على دليل - يعني بناء حياتنا على أساس من الحقيقة الواقعة . أما الذي يقوم على أهوائه فهو ينحرف عن الحقيقة الواقعة . إنه يريد أن يبني لنفسه في دنيا الله هذه دنيا مستقلة على غير مرضاة الله !

وفي عالم الامتحان الراهن ، وإن كانت الفرص والمواقع متاحة لكلا الفريقين على حد سواء ، إلا أن الفريق الأول وحده هو الذي سينال نصيباً من نعيم الله الأبدي في عالم الآخرة الحقيقي ، أما الفريق الآخر فسيظل هناك يتجرع مرارة الذل والخيبة والخسران أبد الأبدين !!

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ

أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿٢٠﴾

ماءٌ حَيِّمًا : بالغاً الغاية في الحرارة.

مَاذَا قَالَ آتِفًا : ماذا قال الآن أو الساعة القريبة ؟

من علامات المنافق أنه إذا حضر مجلساً جاداً، تظاهر بسمت الأدب والجد والوقار، غير أنه يجلس هناك شارد الذهن مصروف الاهتمام إلى أشياء أخرى، بحيث لا يكاد يعي شيئاً مما يدور فيها حوله من حديث، ومن ثم فإذا خرج من المجلس، توجه إلى أهل العلم الآخرين سائلاً ! " ماذا كان يقول الشيخ الساعة في مجلسه ؟ !

وهذا ثمن يُضطرون إلى دفعه بسبب عبوديتهم للشهوات، فهم يجعلون هواهم هو الغالب المسيطر على نفوسهم، ويأخذون في الانسياق وراءه بدلاً من الانسياق وراء الدليل والبرهان، وتكون النتيجة أن تنطمس حواسهم وتصاب شيئاً فشيئاً بالبلادة والخمول، ولا تعود عقولهم قادرة على إدراك الحقائق السامية اللطيفة .

وعلى نقیض من ذلك فالذين يعطون الأهمية للحقائق ويأخذون أنفسهم بالخضوع والاستسلام للدليل الصادق، فإنهم ينعشون بذلك استعدادهم الفكري، ولا تزال معرفة أناسٍ كهؤلاء تزايد يوماً بعد يوم، إذ أنهم يظفرون بإيمان دائم التجدد والنماء وغير قابل للجمود أو النقصان أبداً !

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۚ ﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿٢١﴾

جَاءَ أَشْرَاطُهَا : علاماتها ومنها مبعثه .

فَأَنَّى لَهُمْ؟ : فكيف . أو من أين لهم ؟

ذُكِّرَ لَهُمْ : تذكروهم ما ضيعوا من طاعة الله .

يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ : متصرفكم حيث تستقرون .

الشخص الذي لا يتنبه على سابق إنذار بوقوع الزلزال، فكأنما هو ينتظر أن يقع الزلزال فعلاً، لأن كل ثانية تمضي تُقَرِّبه من الزلزال ، وكذلك لا يكاد يتنبه المرء ولا يأخذ حذره من نذير القيامة ، ولكنه إذا فوجئ بقيام الساعة، فسياخذ في الاعتراف والتسليم !!

الاستغفار في جوهره تعبير عن الشعور بالعجز ، إن الاضطراب أو التهيج النفسي الذي يتمخض عن استحضار أهوال القيامة، وعن الإحساس بقدرته الله وبرقابه وعلمه الشامل المحيط بكل شيء، لا يزال ينسبك في صورة كلمات لطيفة، وهذه الكلمات هي التي يقال لها الذكر والدعاء والاستغفار !

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۚ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۚ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ طَآءَةُ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ ﴾

وَمَثَوَانُكُمْ : مقامكم حيث تستقرون .

الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ : من أصابته الغشية والسكره .

فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ : قاربهم ما يهلكهم واللام مزيدة ، أو العقاب أحق وأولى بهم .

طَاعَةٌ : خير لهم أو أمر طاعة .

عَزَمَ الْأَمْرُ : جد ولزمهم الجهاد .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ : فهل يتوقع منكم ؟ (أي يتوقع) .

تَوَلَّيْتُمْ : الحكم وكنتم ولاية أمر الأمة .

المنافق يكون أسبق الناس في مجال القول، وآخرهم في ميدان العمل، حيث لا يفتأ يتحدث عن الجهاد قبل وقوع الجهاد بالفعل، وأما إذا جد الجد، وتحتم الجهاد، فلا يلبث أن يفر هارباً!!، وأما المؤمن الصادق فإنه يكون دوماً على أتم الاستعداد للسمع والطاعة والانقياد ، فإذا عزم الأمر، وقرّر رأي القيادة على تبني خطوة جادة، أثبت بعمله أنه وفي كل الوفاء بعهده الذي عاهد عليه ربه !

وقد يتظاهر المنافقون بالحرص على الأمن والسلام تهرباً من متاعب الجهاد ، ولكن واقعهم العملي يشهد بالنقيض ؛ فحيثما وجدوا الفرصة، راحوا ينشرون الفساد والفوضى، ولا يتحرجون حتى من التماثل والتعاون مع أعداء المسلمين غير مباليين بما بين هؤلاء وإياهم من وشائج القربى فضلاً عن أخوة الدين !! ومثل هؤلاء ملعونون عند الله، وكون المرء ملعوناً يؤدي إلى أن يسلب منه قوى التفكير والإدراك، فيعود لا يرى مع كونه يملك البصر، ولا يسمع وعنده أذانان !!

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ
أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾

أَقْفَالُهَا : مغاليقها التي لا تفتح .

سَوَّلَ لَهُمْ : زين وسهل لهم خطاياهم ومناهم .

وَأَمَّلَى لَهُمْ : مد لهم في الأمانى الباطلة .

يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ : إخفاءهم كل قبيح .

القرآن كتاب موعظة ، ولكن لكي يتغط المرء بشيء ما، لابد أن يكون جاداً بشأن الموعظة ، ولو أن عاطفة خاطئة استمكنت من نفس المرء وجعلته غير جاد بشأن الموعظة ، فإنه لن يستطيع الانتفاع بها أبداً، مهما تم عرضها بأسلوب رائع جميل .

وإن المرء إذ يُعرض عليه حكم من أحكام الدين يتطلب التضحية بشهواته ومصالحه، فإذا بالشیطان يلقي المرء بعض الأعذار الكاذبة، وبسبب مهلة الامتحان المتاحة في عالمنا الراهن فقد لا يعدم المرء الفرصة لكي يختار ذلك العذر الشيطاني الكاذب عملياً ، غير أن ذلك لا يدوم سوى أيام معدودات، فحين يوافيه الأجل المحتوم، تنقلب الأوضاع والموازن والقيم كلها رأساً على عقب !

لقد وُصف النفاق هنا بعبارة الارتداد على الأدبار من بعد ما تبين لأصحابه الهدى، ولكن من المعلوم أن منافقي المدينة هؤلاء لم يعاقبوا بعقوبة الردة المقررة في التشريع الإسلامي، ومن هذا نعلم أن عقوبة الارتداد الشرعية إنما تنفذ على الذين يرتدون جهرًا وعلانيةً ، إذن، فليس من الجائز لنا أن نحكم على شخص ما، من تلقاء أنفسنا، بأنه مرتد في الباطن، ثم نأخذ في تنفيذ عقوبة الردة الشرعية عليه، لا، بل يجب التعامل معه بحسب ظاهره، وتوكل سرائره إلى الله علام الغيوب، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس !

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَثَهُمْ ﴾ وَلَوْ نَشَاءُ

لَأُرِيَنَّكُمْ فَلَعرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٢٨﴾

أَضْغَانُهُمْ : أحقادهم الشديدة الكامنة .

بِسِيمَاهُمْ : بعلامات نسهم بها .

فِي لَحْنِ الْقَوْلِ : بفحوى وأسلوب كلامهم الملتوي .

إنما كان مرض المنافقين هو كون صدورهم منطويةً على الحقد والضغينة والكرامية للمؤمنين الصادقين؟! وهؤلاء المنافقون وإن كانوا يحاولون إخفاء حالتهم الداخلية تلك بإظهار المودة والولاء في سلوكهم الظاهري، إلا إنها لم تكن خافية على ذوي العقول والبصائر، حيث إن لهجتهم المصطنعة، ونبرات صوتهم الباردة الخالية من الهم والإخلاص للدعوة المحمدية كانت تشي بأن علاقتهم بالإسلام إنما هي علاقة شكلية بحتة وليست علاقة قلبية بالمعنى الحقيقي!

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ ﴿٢٢٩﴾
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَهْدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٢٣٠﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ : لنختبرنكم بالتكاليف الشاقة .

وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ : نظهرها ونكشفها .

عندما ينهض المرء بالإيمان، فتمر عليه ظروف وأحوال شتى، وهذه الأحوال تكون محكاً يكشف عن صدق إيمانه، فهي تقتضي أن يقيم المرء الدليل على كونه مؤمناً في مقابل التضحية؛ بأن يهضم نفسه ويقمع شهواتها، ويصرف نظره عن مصالحه المادية العاجلة، ويتحمل أذى الناس، ويظل ثابتاً على جادة الإيمان ولو كلفه ذلك حياته وما

ملككت يمينه !!

ولإلقاء المؤمن في أحوال كهذه لا بد وأن تُتاح لغير المؤمنين الحرية التامة، حتى يتمكنوا من اتخاذ أي إجراء شاؤوا ضد أهل الإيمان، وبينما تسفر هذه الإجراءات المعادية - من ناحية - عن قيام البرهان على جريمة المخالفين، يثبت أهل الإيمان - من ناحية أخرى - بصمودهم واستقامتهم في تلك الأحوال القاسية، أنهم مؤمنون حقاً، وجدِّرون بأن يختارهم الله لإسكانهم في عالمه الأبدي الكامل !

﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ۖ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ وَأَنْتُمْ لَا أَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ ۖ﴾
فَلَا تَهِنُوا : فلا تضعفوا عن مقاتلة الكفار .

السَّلَمِ : الصلح والمواعدة .

يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ : ينقصكم أجورها .

جاء في رواية عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع - لا إله إلا الله - ذنب؛ فنزلت هذه الآية ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ۖ ﴾ وعلى ضوء هذه الرواية يكون معنى الآية أنه ينبغي للمرء أن يجمع بين الإيمان والطاعة، وألا يقوم بالتكاليف السهلة اليسيرة فحسب، بل عليه أن يقوم كذلك بالتكاليف العسيرة التي تستلزم هضم النفس، وكبت الشهوات، وتعريض المصالح الذاتية للخطر، وإن هو لم يفعل ذلك فإن إتيانه بالنوع الأول من التكاليف وحده، لن يعود عليه بأي فائدة !

وشأن ضعاف المسلمين أنهم إنما يؤيدون الحق ما دام لا يجر عليهم ذلك غضب كبار العصر ، وإذا رأوا أن تأييد الحق يتسبب في إثارة غضب كبار العصر ، مالوا إلى مهادنتهم ، حتى ولو كان هؤلاء الكبار منكرين للحق صادين الناس عن سبيله .

والذين ينكرون الحق ويتصدون لمعارضته ووضع العقبات في طريقه ، لن ينالوا نصيباً من رحمة الله أبداً ، إذن فما بال أناسٍ يقفون إلى جانب المنكرين كهؤلاء ، هل سيكون مصيرهم مختلفاً عنهم في شيء ؟ كلا !

إن الإسلام يسمح بالحرب والقتال تماماً كما يدعو إلى الصلح والمصالحة ، إلا أنها ليست من الحرب الإسلامية في شيء ، تلك التي يدخل فيها المقاتلون متأثرين بعوامل الإثارة والاستفزاز ، كما أنه ليس من الصلح الإسلامي في شيء ، وذلك الذي يكون الباعث عليه الجبن والخور وسقوط الهمة ، وإحراز النجاح والانتصار لا بد من أن يتم كلا الأمرين تحت قرار مدبر مدروس بدل من أن يكون صادراً عن رد فعل عاطفي !!

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۚ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَضَعْنَكُمْ ۚ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ ۖ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۚ ﴾

فَيُحْفِكُمْ : يجهدكم بطلب المال .

أَضَعَانَكُمْ : أحقادكم الشديدة على الإسلام .

إن الشيء الذي يحول دون اختيار حياة الإيمان والتقوى هو فوائد الدنيا ومباهجها ، فالمرء يعلم جيداً ما الطريق الذي سيؤدي به إلى النجاح والفلاح في الآخرة ، ولكن هم

المصالح الوقتية يملك عليه مشاعره كلها ويجعله بالتالي يتجه نحو طريق الضلال والانحراف ، على حين أن الله - جل شأنه - غاية اللطف والرحمة بعباده، حيث إنه لا يطالب المرء أبداً بما يخرج عن طوقه أو يفوق مقدرته على التحمل، مما قد يؤدي إلى انكشاف سرائره واطلاع الناس على مكامن ضعفه الفطري .

الإسلام دين الله ، غير أن واجب القيام بنشره وحفظه منوط، في عالم الأسباب هذا بطائفة من البشر، وإن المسلمين هم هذه المجموعة البشرية ، وستكون لهم قيمة ويقام لهم عند الله وزن ماداموا يؤدون واجبهم ذاك على أفضل وجه ممكن، أما لو أنهم تقاعسوا عن القيام بهذا الواجب أو قصرُوا في أدائه، فسيوفق الله الشعوب الأخرى غيرهم إلى الإيمان، ويدعم بها دينه ليتمكن من البقاء والتوسع والاستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها !